

# أسرار الضمائر أورأي في جذور الضمائر العربية

الاستاذ محمد محمد الخطابي

وجميل منه للمرة الثالثة ان يخدم بذلك العربية وابعائها بتطرقه لهذا الموضوع الحيوى بأسلوب سهل ميسر لا يتطلب كبير عناء لادراك الفكرة الاساسية التى كتب من اجلها رايه في جذر الضمائر العربية ..

ولكن سيكون اجمل من هذا كله ، لو انه اشار ضمن مقاله الى من سبق وعالج هذا الموضوع بالذات من المحدثين ممن يعرفهم أو لابد أنه قرأ لهم في مجلة « اللسان العربى » التى يعد الدكتور التونجى من أبرز كتابها « واعنى به الباحث اللغوى الكبير الاستاذ عبد الحق فاضل وأذكر أنني قرأت ما كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل عن هذا الموضوع منذ أزيد من عشر سنوات ، أى منذ عام 1966 بالتحديد ! حيث اطلعت على أول بحث له في هذا القبيل في العدد الرابع من مجلة « اللسان العربى » في مقالة بعنوان : « لمحات من التائيل اللغوى » ثم قرأت له كذلك — عن نفس الموضوع — في العدد الخامس 1967 من نفس المجلة المذكورة في مقالة بعنوان : « أسرار

اطلعت على مقالة الاستاذ محمد التونجى ( استاذ اللغات الشرقية والسامية المساعد بجامعة بنغازى ) التى ضمنها رايه في جذر الضمائر العربية حيث تعرض الى أصل هذه الضمائر فردها جميعا الى الهمزة (ا) بصفتها أقدم حرف نطقه الانسان الاول ، وضرب لذلك عدة أمثلة بطريقة مبسطة لا يصعب على القارئ العادى ادراكها وفهمها .

وجميل من الدكتور التونجى ان يتعرض لهذا الموضوع الذى يعد في الواقع من أطرف الموضوعات اللغوية وأصعبها وأكثرها اثارة لفضول اللغويين على اعتبار أهميته وخطورته بالنسبة لباتى المسائل اللغوية الأخرى .

وجميل من الدكتور التونجى كذلك أن يسلك في هذا الموضوع طريقة « خير الكلام ما قل ودل » حيث استطاع أن يقدم في أربع صفحات من خط اليد هذه المسألة الشائكة التى بسطها عبد الحق فاضل في ( 105 ) صفحات من كتابه « مغامرات لغوية » .

التقديم ، المجهول ، الذى جعل الهمزة اول الحروف العربية لانه الصوت الطبيعى الذى ينطقه البشر فى جميع الاتوام ، منذ اقدم العهود فيما يظهر ، ويستعمله الانسان العربى — ما يزال — فى التعبير عن مختلف حالاته الانفعالية والبيانية ، من انين ، « اه » ، وتعجب ( آه ! ) ، واستزادة ( ايه ! ) ، وضحك ( اه ، اه ، اه ) ، ونداء ( آ ، آ ، آ ، آ ) ، واستنهام ( آه ) ، وايجاب مع القسم ( اى ) ،، حتى بعض الحيوانات تنطق بالهمزة احيانا عند ما تصيح ، فتبهر صوتها اى تبدؤه بالهمزة » .

وبين للقرائى مقدار التشابه بين مضامين هاتين العبارتين . ولا بأس كذلك ان نورد عبارة اخرى للاستاذ عبد الحق فاضل فى مجال حديثه عن الهمزة كضمير عام يقول : ( فى نفس الكتاب ص 255 ، وبرهاننا على ما ذكرنا من ان الانسان العربى الاول استعمل الهمزة ضميرا عاما للدلالة على مختلف الاشخاص او الاشياء نذكر ان الانكليز ما زالوا يستعملون تلك الهمزة بصورتها البدائية ( اى ا بمعنى : انا ، وينطقها الايطاليون بكسرة تليها ضمة ( ايو — io ، اما الاسبان فينطقونها بحذف الهمزة ( يو — yo فى بعض اللهجات و ( جو — jo فى الفصحى بينما ينطقها الفرنسيون جه — je اما ( ايكو — ego اللاتينية فيظهر انها من الإيطالية وقد ورد هذا الضمير فى الصينية — وباللعجب — بصيغة ( وو wo الخ ،، الخ .

ولنتمعن كذلك هذه العبارة القصيرة للدكتور التونجى « واذا اراد العربى ان يتكلم عن نفسه لفظ الحرف « ا » وأشار بيده الى نفسه ، واذا خاطب من امامه قال « ا » وأشار اليه كما انه اذا اشار الى الغائب قال « ا » وأشار بأصبعه الى الخلف . ولا زالت ( كذا ) الاشارة بالبنان تقوم مقام الضمائر حتى الآن الخ .

ويبدو ان هذه العبارة مقتبسة بشئ من التحوير لا يكفى لينسبنا انها مقتبسة من قول الاستاذ عبد الحق فاضل : « لهذا يبدو لنا ان الانسان العربى

الضمائر » وأخيرا فى كتابه المعروف : « مغامرات لغوية » . اتقول ، كان على الدكتور التونجى — على الاقل — ان يشير فى مقاله الى ان الاستاذ عبد الحق فاضل قد سبق الى الكتابة عن هذا الموضوع حيث عالج بالتفصيل نفس المسائل التى وردت فى مقالة الدكتور التونجى فكان حريا به الا يغفل هذه الملحوظة خصوصا وأنه يعالج ذات المسألة بل انه ساق لها الكثير من الامثلة التى جاء ذكرها فى بحوث الاستاذ عبد الحق فاضل فى هذا الصدد والتى لا بد انه اطلع عليها او على الاقل على واحد منها سواء المنشور فى العددين الرابع او الخامس من « اللسان العربى » او فى كتابه المؤلف — السابق الذكر — « مغامرات لغوية » الذى كان له الصدى الطيب بين لغوى العرب المحدثين ، ولكى اكون موضوعيا ولا اکتفى بالاشارة النظرية ارى من الضرورى ان اعتقد بعض المقارنة السريعة « بالحرف » بين ما ورد فى مقالة الدكتور التونجى وبين ما كان قد كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل عن هذا الموضوع منذ عشر سنوات او تزيد .

فاذا تناولنا مقالة الدكتور التونجى وتتبعناها سطرًا سطرًا تبين لنا مقدار التشابه بين الافكار ولا اتقول العبارات التى جاءت فيها عن جذور الضمائر العربية .

ولنتبدىء بعبارة الدكتور التونجى التالية : « ومن البدهى ان يكون الصوت « آ » اول حرف نطقه انساننا الاول فى الجزيرة العربية . ولهذا فانه استخدمه فى النداء والاستغاثة والترحم والتنبه والحث والضجر والتصديق والاجابة . فاذا تألم الانسان نطق بلا وعى منه لفظة « آى » واذا اراد التصديق على امر قال « ا » او « آ » حسب المنطقه التى نشأ فيها واذا استفهم على امر نطق « ايه ؟ » والهاء للوقف طبعًا ، وهكذا » .

واليك عبارة الاستاذ عبد الحق فاضل من كتابه « المغامرات » ص 249 حيث يقول فى هذه النقطة بالذات : « كان موافقا جدا ذلك المثقف العربى

اللغات السامية بهذا الأسلوب الشيق الجميل ،  
والعرض المتمتع الموجز كنا نتوقع منه ان يشير من  
تقريب أو بعيد الى ما كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل  
عن هذا الموضوع بالذات حيث أوضح بالتفصيل كل  
ما يتعلق بهذه الضمائر من أسرار كما تحدث بأسهاب  
عن نشوئها وتسلسل بعضها من بعض في اللغة  
العربية واللغات الآرية وليس تصدنا من وراء كتابة  
هذه الملاحظة الانتقاص من مقالة الدكتور التونجى  
وانما النزاهة العلمية تقتضى منا ان نلفت نظر  
القارئ الكريم الى هذا الامر ، ومع تقديرنا الكبير  
لجهود الرجلين في خدمة لغتنا العربية الحبيبة التى  
تدما لابنائها الكثير من البحوث الجادة فى شتى  
الميادين العلمية واللغوية ، نتمنى لهما مزيدا من  
النشاط والتوفيق والعطاء المثمر .

مزج لغة الصوت بلغة الضوء فأخذ يقول ( آ ) لينبه  
الآخرين اليه ويشير الى نفسه يعنى ( انا ) ، او يقول  
( آ ) مشيرا الى مخاطبه يعنى ( انت ) ، او مشيرا  
الى شخص آخر أو شيء ما يعنى : ( هذا ، ذلك ،  
هو .. )

ولكى نعنى القارئ الكريم من هذه الاطنابات  
خير له ان يراجع ما كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل  
عن هذا الموضوع بالتوالى فى العديدين الرابع والخامس  
من « مجلة اللسان العربى » او ما جاء فى صفحة  
247 من كتابه « مغامرات لغوية » ثم يقارن ذلك  
بما كتبه الدكتور التونجى فى المقالة المنشورة فى هذا  
العدد من هذه المجلة .

ونحن اذ نقدر للدكتور محمد التونجى اهتمامه  
بهذا الموضوع وتطرقه فيه كذلك لبعض الضمائر فى